

## «فيينا-3»:

### هل من جديد؟

#### ■ حميدي العبدالله

عقد يوم أمس في فيينا الاجتماع الثالث «لمجموعة دعم سورية» ومن غير المعروف لماذا سُميت بمجموعة «دعم سورية» في حين أنّ غالبية الدول المشاركة في هذه المجموعة منخرطة في الحرب التي شُنت على سورية منذ عام 2011 وحتى الآن. سواء مباشرة عبر أجهزتها الاستخبارية، أو عن طريق الجماعات المسلحة التي حصلت وتتحصل على الدعم المالي والأسلحة والفتاكة،الفلك بالسوريين وبعناصر الجيش وأجهزة الدولة الأخرى.

لكن السؤال المطروح اليوم يتعلق بما ستؤول إليه الأوضاع في ضوء البيان الصادر عن دول المجموعة. فمن المعروف أنّ المجموعة تتوزّع على طرفين، الطرف الأول الذي يدعوا إلى حل سياسي للالة السورية على قاعدة وقف القتال وبدء حوار سوري – سوري، واحترام حق الشعب السوري في تقرير مصيره بنفسه، هو ما تضمنته تفاهات فيينا (1) و(2) وقرارات مجلس الأمن، وتحديد القرارات 2253 و 2254، ولكن في مجموعة دعم سورية لا تزال هناك دول تصرّ على قلب نظام الحكم في سورية عن طريق دعم الإرهاب. تحت شعار لا دور للرئيس الأسد في مستقبل سورية، وسوف تستمرّ الحرب إلى أن يرحل عن الحكم، وإلا لا وجود للحل السياسي، ولعل هذه المعادلة التي تتبنّاها الولايات المتحدة في المعادلة التي يعبّر عنها بيجاجية وزير خارجية المملكة العربية السعودية عادل الجبير، بقوله المتكرّر «أَنْ على الرئيس بشار الأسد أن يرحل سياسيا عسكريا»، أيّ أنّ الرئيس كمثل للملكة السعودية بفضّ بنفسه، ملته مثل الرئيس الأميركي والرئيس الفرنسي ورئيس حكومة بريطانيا، بديل عن الشعب السوري مخالفين القانون الدولي والقرارات الصادرة من مجلس الأمن والتفاهات الدولية، بما فيها «جينيف ١» التي نصّت على احترام إرادة الشعب السوري في تقرير مصيره بنفسه واحترام سيادة سورية وعدم التدخل بشؤونها الداخلية.

هل نتيج المجموعة في إقناع الدول المتنتعة بتسليم الوصول إلى حل سياسي، وهل تعدد الاستراتيجيات القائمة على العزل بين القوى التي سوف تشارك في الحل السياسي والقوى الإرهابية، أي استمرار الاستعمار في الإرهاب؟ وبالتالي يكون حل ما تمخّص عن اللقاء بيان صحافي لن تكون له أيّ تداعيات على الأوضاع المأساوية التي تعيشها سورية منذ أكثر من خمس سنوات؟

التصريحات التي أدلى بها وزير خارجية الولايات المتحدة جون كيري عند زيارته للمملكة العربية السعودية، كشف النقاب عن جدول أعمال مجموعة دعم سورية، كما أنها حدّدت سقف الطموح لما يمكن أن يسفر عنه الاجتماع. تبعاً لهذه التصريحات فإنّ المدورات والبيان الختامي تمحورا حول مسألتين…

الأولى ضرورة الالتزام باتفاق وقف العمليات، وواضع أنّ الولايات المتحدة وحلفاءها ليس لديهم خيار آخر بعد أن اختبروا قسرتهم على تغيير المعطيات الميدانية في قرارهم خرق الاتفاق على امتداد حوالى أكثر من شهر، وإذا كان من إنجازات على بعض الجبهات، قابله تراجع على جبهات أخرى، الأمر الذي أبقى الوضع الميداني على ما هو عليه، وكان القوة الجوّفضائية الروسية لم تسبب في جزئها الأكبر من سورية.

بين وفد الجمهورية العربية السورية ووفود المعارضة على النحو الذي حدث في الجولة الأخيرة، ولم ينتج عن «فيينا3» تفاهات أعلى من ذلك في ظل المعطيات الميدانية القائمة الآن.

## فيينا والتفاه الروسي الأميركي

- السلسلة التي سارت بها أمور اجتماع فيينا لجهة التصديق على التفاهم الروسي الأميركي، والقوة الواضحة للموقف الروسي كما عبر عنها وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف شكلت مفاجأة للمتابعين.

- جماعة الرياض ورابعها وزير الخارجية السعودي عادل الجبير وفعوا في الإرباك والضباب حتى جنتهم الفضائية تتابع في ضاعت ولم تعرف كيف تتابع بين الحديث عن نجاح أو فشل.

- الكلام الأميركي واضح عن عملية سياسية بمشاركة الرئيس السوري، وعن مهلة للجمعات المسلحة المنفوسية، في جماعة الرياض للابتعاد عن «النصرة»، وتهديد بإخراجها من المفاوضات والهدنة.
- لم يتراجع الروس عن لغتهم القوية في وجه العبت التركي وتصنيف «جيش الإسلام» و«أخبار الشام» ولا عن مشاركة الأكراد في المفاوضات.

- تحديد مواقع «النصرة» ومراقبة تداخل الجمعات المشاركة في جماعة الرياض معها سيتمّ وفقا لكليات روسية أميركية ويبنى عليه القرار.
- هذا التصر الروسي الواضح لا تقتصر مشاورات ساعات للمتبعين.

- أصيبت السعودية بالنكسة لأنّ أوروبا وتركيا تسعد على خصمها في حل فيينا الخاص بليبيا.

- دعم حكومة السراج حصّة تركيا وتغلّطية تموضع عسكري فرنسي بريطاني يفشّر التموّض الأوروبي.

## التكامل مع الآخر\*

### زيد حافظ\*\*

عندما دعاني الأخ الأستاذ واصف شرارة للمشاركة في هذه الندوة وتحت هذا العنوان «التكامل مع الآخر» راودتني أفكار كادت تدفعني للاعتذار عن المشاركة بسبب ما ظننت آنذاك عدم توفر الوقت الكافي لتحضير وكتابة مداخلتني. خاصة أنني منعم في مشروع فكري واسع هو التجدد الحضاري العربي كأحد أبعاد مشروعنا النهضوي العربي. لكن وجدت من واجبي أن أعرب عن بعض هواجسي الفكرية التي تتناول مسألة «الآخر» لأنها في رأيي أدّت إلى الهاء المثقفين العرب بقضايا ليست بالأولى أو الأهمية التي يفتقدون، بل أنها مستوردة إذا جاز الكلام من العرب بسبب إما اغترابهم أو ثقافتهم الجامعية والبحثية في الغرب، وهذا أمر قد يكون طبيعيا، أي التأثير بالبيئة الثقافية التي ترعرعوا فيها.

قضية «الآخر» تأخذ الطابع الملحّ بسبب الأعمال الوحشية التي قامت بها بعض المجموعات المتشدّدة. إنّ ظاهرة التعصّب والغلوّ والتوحّش التي تتصنّد الفضاء الإعلامي العربي والدولي توجي عند الكثيرين أنّ هناك مشكلة ما في تراثنا وبيئتنا وخاصة في «الإسلام»؛ هذا الانطباع منتشر في الغرب ولأسباب سياسية واضحة بينما هناك تسطيح وتبسيط في الفضاء السياسي العربي لتلك الظاهرة واختزالها بظاهرة ظرفية صنعها المستعمر. وإن لا ننكر مسؤولية المستعمر الغربي القديم الجديد في تحريك تلك المجموعات المتشدّدة والمتعصّبة وصاحبة

### التكامل الحضاري والعلاقة مع الآخر

السياق الفكري السياسي. من المهمّ، من وجهة نظرنا، وضع العقارية حول «الأخر» في سياقها الفكري السياسي عبر ربط الإنشائية بالمشروع النهضوي العربي. ونشد على السياق السياسي لأنه في رأينا كل شيء يبدأ في السياسة وينتهي فيها رغم الظاهر «العلمية» و«الثقافية». والمشكلة في رأينا هي التركيز على استيراد منظومة فكرية من الغرب كشرط ضرورة للخروج من التخلف كما أوضحه بعض رؤاد النهضة العربية كفرح انطون ومن بعده هله حسين ومؤرخ عبد الله العروي على سبيل المثال الذين نادوا بضرورة القطعية المعرفية الموروثة.

فخلافًا لما يُشاع لدينا مشروع فكري وسياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي متكامل نابع من واقعنا، هو المشروع النهضوي العربي بإبعاده الستة:الوحدة في وجه التجزئة والتفتيت؛الاستقلال الوطني في وجه التبعية والاحتلال؛ المشاركة لمكونات المجتمع (العضء يستهيمها الديمقراطية)؛ في مواجهة الاستبداد؛ التنمية المستقلة في مواجهة التخلف والفقر والجهل؛ العدالة الاجتماعية في مواجهة مظالم نظام اقتصاد السوق؛ أخيرا،التجدد الحضاري في مواجهة تراجع الثقافة العربية. بالنسبة لنا الأولية في هذه المرحلة هي الوحدة والنهذ والتجدد الحضاري دون الانتقاص من أهمية الأبعاد الأخرى ويمكن مناقشة المفصلة في مكان آخر.فالتجزئة هي السبب الرئيس لضعف المجتمعات العربية ومن هنا ضرورة بلورة ثقافة الوحدة. فالمجتمعات الضعيفة تتنامى فيها الفرزائ والعصبيات الفرعية، لذلك لابد من استرجاع القوة في هذه المجتمعات وهذا لن يتحقق إلا عبر الوحدة. أما التجدد الحضاري فيمكن في إيجاد منظومة معرفية خاصة بنا كعرب دون الوقوع في مضآب المفاهيم المستوردة منها في رأينا مسألة «الآخر»، كما ستعالجها في ما بعد.

فالتجدد الحضاري والوحدة هما المدخل لنهضة الأمة ومختلف المجتمعات العربية. فالوحدة تقاربها في هذه المداخلة من باب معالجة إشكالية «الآخر» التي ورثناها من مئتين بحد عشر عاشوا وترعرعوا في الغرب وقيمون بإسقاط إشكاليات الغرب على مجتمعاتنا. فالمتخصّر المفيد هو أنّ مشكلة «الآخر» مشكلة خاصة بالمجتمع الغربي نشأت إبان الثورة الفرنسية وفي مطلع الحداثة الثورة الصناعية التي تلازمت مع الحقبة الاستعمارية لعدد من الدول الأوروبية التي ازادت أن تتفّد «مهمتها المدنية» كفرنسا، أو أارت ابتز إيزاب «عبد الرجل الأبيض» وبريطانيا، أو مؤخرًا القدر «المجئلي» و«استثنائية» الولايات المتحدة. فعُدت الشغل لثبرير المغامرة المدمرة للشعوب السمرء والصفراء والسوداء كانت «الآخر».

### العروبة هي الحلّ!

العروبة بالنسبة لناهي المدخل الحقيقي لمعالجة قضية «الآخر» وخاصة بعدما ينتج من خطاب الإقصاء سواء على قاعدة سياسية أو دينية. فمفهومنا للعروبة هو مفهوم ناتج عن مقارنة ومراجعة لمسارات فكرية وعملية امتدّت على خمسة عقود. فالعروبة هوية جامعة لمكوّنات مختلفة سواء كانت عرقية أو طائفية أو مذهبية. العروبة ليست عقيدة له هوية بصّر أعداء الأمة على نفسها واختزلها إما بالعرق أو عقائد لأحزاب وتيارات فبعدت نادت بالوحدة بتحقيق فلا يحقّ للحرب من وجهة نظر الكيان الصهيوني والغرب أن تكون لهم هوية غير الانتماء الطائفي أو المذهبي أو القبلي أو الإقليمي، بينما هوية الجامعة لكل مكوّنات المجتمع العربي ممنوعة. الهجوم على العروبة هو لتبرير الهويات الفرعية المدمّرة والتي تمكّن الكيان الصهيوني والغرب من الهيمنة على مقدرات مجتمعات متناحرة بسبب الهويات العنينة.

فالمسألة تصبّح من نحن وليس من هو الآخر وكيف نتعامل معه!

فالعروبة هي إنسانية أولا وأخيرا تتحقّق عبر المواطنة في الوطن العربي ندعمها المشاركة الفعلية لكل مكوّنات المجتمع لتحقيق الاستقلال الوطني من التبعية المباشرة أو المبطّلة، والتنمية المستقلة، والعدالة الاجتماعية في بوقلة واحدة تتجسّد في وحدة الأمة. وفي الوحدة قوّة لا يريدها أعداء الأمة. أما شكل الوحدة فبعدت عدّة أشكال يمكن الاختيار منها.

في مفهومنا المواطنة التي تحلّ المعطيات «الآخر» هناك حقوق وهناك موجبات. معظم الأليات والخطابات السياسية تركّز على «الحقوق» وتتجاهل «الموجبات». والحقوق على ما يبدو تأخذ طابع الامتيازات التي تتجاهل الموجبات. فعندما نسقم في لبنان عن ضرورة إلغاء الطائفية لتحقيق المواطنة نجدنا تكال للبينيين في ممارسة خنهم في التصويت كما حصل منذ بضعة أيام في بيروت؛ فثقافة الاكثار إلى على الزعيم أو على الدولة يتناقى مع المسألة والمحاسبة، والليبناني لم يستطع حتى الآن الخروج من تلك الحلقة المفرقة رغم كلّ الزعيق لعكس ذلك، والسبب في رأينا يعود إلى الحفاظ الربيع المتفشية عند الجميع، فالزعيم هو الذي يمنح ويعطي ولا داعي للمجهور؛ فالنسبة المتدنية في الاقتراع تشجّع الرعايات على عدم الاكتراب بالأصوات، وهم محقون بذلك، فإذا التصويت حقّ وواجب في أو واحد ولا يمارس، فما لب الواجبات الأخرى كالحفاظ على الثقافة العامة أو الالتزام بقوانين السير مثلا؟ فعدم الالتزام بها هو تعدّ على «الآخر»؛

مشروعنا النهضوي العربي يلحظ الوحدة واحترام الآخر. والوحدة كما نفهمها هي ضمّ «الآخر» وصهره في مجتمع العدالة وتكاتف الفرض. غير أنّ الثقافة الوحدوية تبدأ في المنزل، ثم في المدرسة والجامعة، وثم في مراكز العمل، وفي كل مكان يجتمع فيه الناس. الثقافة الوحدوية تختلف عن الثقافة الفرعية في الجزئية التي تتحكم بنا. لكن بسبب الثورة التكنولوجية في وسائل التواصل تحدث ثورة أخرى وهي التواصل المباشر مع الأفراد في آن واحد. فنتسج العلاقات الشبكية التي تجمع ولا تفرّق. وتوتّع العلاقات الشبكية في الشكل والمضمون تسبّح الخروج من الأطر الضيقة التي يرفضها التنظيم الفئوي. فالحرز هو الصيغة التنظيمية للسلوك الفئوي، وهنا علينا أن نتعالج تلك المعضلة أيّ ما هو دور ومستقبل الحزب، أيّ حزب، على ضوء الثورة في التواصل الاجتماعي؛ فالحرز يميّز ويفرّق ومصلحة الحزب تتجاوز في معظم الأحيان البرنامج أو الفكرة التي من أجلها وجد. فمصّلة الحزب تصبّح فوق أي اعتبار وإن كانت الوحدة الهدف الأساسي له! وحتى الحزب الديني الذي يجب أن يجمع الوهمين فاصبّح حزب التنمية المذهبي والانضاهي. لكن كيف يمكن للعلاقات الشبكية أن تفرّز إطارا تنظيميا للعمل السياسي، فهذه مسألة ما زالت قيد البحث وتتوجب مشاركة واسعة من المثقفين والمفكرين والناشطين.

هنا لابد من إيذاء ملاحظة نعتقد أنّها في غاية الأهمية وهي العلاقة بين دولة الوحدة والوحدة الوطنية في كل قطر. المشروع النهضوي العربي الذي نؤمن به حسم الإنشائية. فالوحدة الوطنية شرط ضرورة لإقامة دولة الوحدة. والحفاظ على الوحدة الوطنية تحقّقها دولة الوحدة وتحميها. الهويات الفرعية هي فرعية ولا تتناقض مع الهوية الجامعة. فهويتنا العروبية هوية مركبة من رؤاقد متعدّدة تراكمت مع التاريخ واستوعبت الهويات الفرعية. فالکرد مثلا هم هويتهم الكردية ولكن ثقافتهم وحضارتهم جزء من الهوية والثقافة والحضارة العربية. كذلك بالنسبة لليبيين والأرمنية والأزمنة

## البناء

الغلوّ والتوحّش إلا أنّ المسألة فتّحت مشكلة ثقافة القبول بالآخر على مصراعيها. فمجموعات التعصّب والغلوّ والتوحّش تشكل رمزا لثقافة عربية إسلامية مشوّهة ترفض القبول بالآخر. غير أننا نعتقد أنّ ذلك التوصيف للمشكلة غير دقيق. فنكث الظاهرة ليست خاصة بالعرب بل موجودة أيضا في الغرب كما سأوضحها في ما بعد .

طبعًا، هناك إشكالية في تحديد من هو «الآخر». فهـ «الآخر» يختلف بين مجتمع ومجتمع في المكان والزمان. في الغرب، إضافة إلى التمايز في الأعراق والأديان، هناك أيضا التمايز بين الجنس، أيّ بين الرجل والمرأة، وفي التوجهات الجنسية كمسألة المثلية. لا يمكن تجاهل كل هذه الملفات كما لا نعتقد أنه من المفيد إدراجها في الأولوية ليس فقط عندنا بل أيضا في الغرب. لدينا شعور أنّ هذه القضايا تبرّز وتما القضاة الإعلامي لتحويل الأنظار عن قضايا نعتبرها أكثر إلحاحا، وذلك دون التنكّر لأهميتها. ففي الوطن العربي، هناك احتلال لفلسطين، واقتتال طائفي ومذهبي وقبلي وتجزئة وتخلّف وفقر وجهل وتجهيل، وهي أهمّ من قضايا التمايز بين الرجل والمرأة أو قضية الاعتراف أو عدم الاعتراف بحقوق المثليين. كما أنّ قضايا التنمية والعدالة الاجتماعية ومقاومة التبعية والفساد والفقر ناهيك عن الاحتلالات لأقطار عربية تأخذ الأولوية في اهتماماتنا.

مسألة «الآخر» هي الوجه السلبي لمسألة الهوية التي في نظرنا هي مسألة

الدفاع عن أيّ تهمة يمكن توجيهها له، كما تتحلّى الأمر في قضية اللاعب الرياضي الشهير أو جي. سمسون المتهم بقتل زوجته في منتصف التسعينات من القرن الماضي والذي استطاع أن يفلت من يد العدالة بسبب مهارة محاميه. كما أنّ المدراء المصرفيين الكبار المسؤولين عن هدر أن لم تكن اختلاسات لأموال المودعين والمساهمين استطاعوا الإفلات من تهم الفساد وذلك بسبب مهارة محاميهم الأكفاء. اللاحثة طويلة لتلك الأمثال التي تؤكّد ثقافة الإقصاء لآخر في الولايات المتحدة. ولا ننسى مدى وحشية قوى الأمن تجاه المواطنين الأميركيين السود حيث تشير الإحصاءات إلى أنه في عام 2015 قتل ما يقوّن ألف مواطن أمريكي من السود وعلى يد قوى الأمن!

أما في أوروبا «العلمانية» ثقافة الإقصاء مرتسّخة حتى تمّ رفض عضوية تركيا للاتحاد الأوروبي بسبب الدين كما أوضحت الأمن تجاه المواطنين الأميركيين السود حيث تشير الإحصاءات إلى أنه في عام 2015 قتل ما يقوّن ألف مواطن أمريكي من السود وعلى يد قوى الأمن! في أوروبا «العلمانية» ثقافة الإقصاء مرتسّخة حتى تمّ رفض عضوية تركيا للاتحاد الأوروبي بسبب الدين كما أوضحت الرئيس الفرنسي الأسبق فاليري جيسكار ديستان. فلا مكان لدولة مسلمة في الاتحاد الأوروبي المسيحي؛ أما في بريطانيا فهناك التمييز ضدّ الآخر عبر مصطلحات تؤكّد التمييز. فهناك مصطلح الشخص الشرقي المتغرب (/ westernized oriental person) وحتى إذا كان من الجنس في بلاد فيصبح السيد الشرقي المتغرب (westernized oriental gentleman). فهذه مصطلحات في غاية العنصرية للتعبير أنه مهما علا شأن «الآخر» فهو «آخر»؛ غائبا عمدة لنثن من أصول باكستانية ومسلمة يعتبر أكثر من بلاد اللاتورة؛ ولكنها لا تنسب العنصرية. فالإعلام البريطاني الذي يبطلّ لذلك يعترف ضمنا أنّ مجتمعه مجتمع عنصري والأ لما كانت الضرورة في إبراز أصوله؛ واليوم نرى في وسائل الإعلام الغربي والمواقع الإلكترونية تحريضا واضحا ضدّ الوافدين إلى أوروبا من القارة الأفريقية أو القارة الآسيوية وخاصة العرب والمسلمين!

إذًا، مشكلة «الآخر» مشكلة الغرب أيضا أنّ لم تكن مشكلته في الأصل وليست مشكلتنا أو مشكلتنا لوحدنا. والحديث عن «الآخر» مهدلعاغراء الاستعمارية في «مهمتها المدنية».عند الفرنسيين، أو «عبء الرجل الأبيض» عند البريطانيين، أو مسألة «الفرنسجتلي» عند الأميركيين. فكثما شعارات تبرّز السيطرة على الشعوب السمرء والسوداء أو الصفراء؛ فالعنصرية المتفشية في الغرب تتلازم مع الذاتية ولهاها أفرزتا الاستعمار. فالثالوث الجهنمي – العنصرية، الذاتية، والاستعمار حدّد ملامح الثقافة في الغرب في القرنين السابقين أي التاسع عشر والعشرين<sup>(٦)</sup>.

### العبد التراثي لمشكلة «الآخر»

الحضارة الغربية الإسلامية تكوّنت في التفاعل مع الحضارات الأخرى وليس هناك من القطاع في التاريخ بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات التي سبقتها والتي عاصرتها<sup>(٩)</sup>. فالفتوحات العربية لتلتها الترجمة تمّ الرحلات المتعرّف على العالم. رحلات ابن

## التجزئة هي السبب الرئيس لضعف المجتمعات العربية ولذلك من الضروري بلورة ثقافة الوحدة… لأنّ استرجاع القوة لن يتحقق إلا عبر الوحدة

أنّ النمو السكاني الطبيعي في دول الغرب يأخذ منحى سلبيا لا

يمكن تغلغليه إلا بالهجرة الوافدة. وهذه الهجرة المشجّعة تلقائيا من قبل الفعاليات الاقتصادية وإمداداتها في السلطة تهدف أيضا إلى الضغظ على سوق العمل وعلى الأجور. فالسلطة هدف مطلوب وإنّ كان غير معنّ لجعل الأجور منخفضة. فالهجرة الوافدة وخاصة اللاتشرعية منها مطلوبة لذلك السبب. إلا أنها تخلق توترات اجتماعية وثقافية تتناقض في عصر الانتماش الاقتصادي إن لم نقل في عصر التراجع البيئي الاقتصادي الناتج من سياسات اقتصادي تضطرت الحزبة المملطة في الأسواق، فكان التركيز الاقتصادي وتمركز القوة والسلطة وعلى حساب القطاعات الواسعة للمجتمعات في بلاد الغرب. كما أنّ التحوّلات في المنظومة الرأسمالية نحو اقتصاد افتراضي يتركز إلى إنتاج فرة افتراضية عبر التلاعب بالأسواق المالية والعقارية كشذ ضرورة خلق طبقات شعبية تقوم بالأعمال التي لم تعد مقبولة كالتنظيف وحقّ البناء. ففي أعمال شاقّة وتحدود بالمرود الكافي ولكنها تساهم في ترويج ثقافة استهلاكية مبنية على الاستدانة.

فهذه الحقائق الاقتصادية الاجتماعية تنعكس على البنية السياسية والبنية الثقافية لدول الغرب حيث تنشذر مجددا مفاهيم كضرورة الحفاظ على الهوية الأصلية. تشير في هذا السياق إلى ما قاله صامويل هنتنغتون قبل رحيله: «أنسوا صراع الحضارات فإنّ الخطر الذي يحقّق بأميركا هو فقدانها لهويتها الاكلتوساكسونية الإنجليزية البياض» ويحذر هنتنغتون مواطنيه من الهجرة الوافدة من أميركا اللاتينية التي ستفرّض لغتين وثقافتين في الولايات المتحدة وهذا ما يهدد الهوية الأميركية التي أسّسها البريطانيون في مطلع القرن السابع عشر. وتقوم هذه الهوية على أساس اللغة الإنكليزية والقيم المحافظة الفردية واحترام القانون. والمهاجرون الذين أتوا إلى أميركا نقلوا هذه القيم وأنخرطوا في الهوية الجديدة. لكن الهجرة الكثيفة الوافدة من أميركا اللاتينية خلقت ازدواجية في الهوية بل إلى تعددها وتخفيف المواطنة و«ترزع الوطنية» عن النخب الحاكمة. هذا كلام عنصري بامتياز مبني على مفهوم عدواني لـ«الآخر»، ويتناقض مع سائر القيم التي تحاول النخب الأميركية ترويجها في العالم.

### ثقافة الإقصاء

ومشكلة «الآخر» في الغرب بشكل عام والولايات المتحدة بشكل خاص لا تنحصر في الهوية أو لون البشرة بل أيضا في الدين والطبقة الاجتماعية. ثقافة الولايات المتحدة مبنية على ثقافة إقصاء الغير وإنّ تعدّدت الأشكال. من البداية كانت الإيادة الجماعية للشعوب الأصليين في القارة الأميركية<sup>(٤)</sup>. فكانت ثقافة الإقصاء على قاعدة الأسس الدينية. فخلافًا لما يُشاع حول مقولة القبول بالآخر في الولايات المتحدة فإنّ تاريخها حافل بالتمييز الديني خاصة تجاه الكاثوليك واليهود واليوم العرب والمسلمين. أهل في صفة أنّ الرئيس الكاثوليكي الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة أيّ جون كينيدي لم يكن ولايته لم تمّ اغتياله في ظروف ما زالت غامضة حتى الآن؟ وهل ننسى الحملة على نيفس باريك أوباما المشكّكة في حقّ المسلمين؟

وهناك ثقافة إقصاء على قاعدة اقتصادية: لم يحرم الدستور الأميركي حقّ التصويت المرأة التي لا تنتج ولا تدفع الضريبة وكذلك أبناء الطبقات الفقيرة التي لا تدفع الضريبة؛ هناك أيضا إقصاء على أساس الطبقة الاجتماعية أو بالأحرى على أساس الثروة. فعلى ما يبدو المساواة مسألة نسبية في تطبيق العدالة. فالمتممّ الفقير لا يستطيع استخدام خدمات محام جدير بينما الثري يستطيع أن يجنّش أنزلا من المحامين والخبراء في

السنة الثامنة / الأربعاء / 18 أيار 2016 / العدد 2080 Eighth year / Wednesday / 18 May 2016 / Issue No. 2080

مفتعلة. فمصطلح «هوية» ليس مصطلحاً أصيلاً في اللسان العربي، بل هو مشتق من ضمير «هو»؛ في الثقافة العربية لا توجد مسألة الهوية، هناك مسألة النسب والعصب ولكن ليس هناك إشكالية في الهوية التي يجعلها اللسان العربي. والباحث سري المقدسي أشار إلى أنّ مسألة الهوية تبلورت في القرن التاسع عشر كمؤشر عن الحدأة ليس فقط في الوطن العربي بل في العالم وكثيرير اللعبودية والاستعمار(1)؛ والروائي أمين معلوف في روايته الشهيرة «صخرة طينوس» أشار كيف استغل المستعمر الأوروبي مسألة الهوية لزراع الفتنة. لن ندخل في سجال حول أصول الهوية و«الآخر» والوقت والساحة و«صخرة» أيضا غير مقتنعين بجوى مثل هذه المقاريات. لذلك نكتفي بتعريف مبسّط عن «الآخر»، أيّ هو الشخص الذي نعتبره يختلف عنا ونجمل من هذا الاختلاف مصدر علاقة صدامية. في المقابل لا نؤيد مقولة شائعة أنّ ثقافتنا، وخاصة ديننا، يدعو للتسامح. نعتقد أنّ المصطلح الأديّ هو أنّ ثقافتنا وديننا في الأخصّ يدعو إلى احترام الآخر وليس التسامح معك لأنّ التسامح يحمل في طيّاته الاستعلاء. فعبر الاحترام المتبادل يمكن بناء علاقات مينة تكاملية. في هذه المداخلة نستعالج القضايا التي نعتبرها مهمّة في مقارنة العلاقة مع «الآخر». سنتمكّل عن موقع الموضوع في المشروع النهضوي العربي والمنظومة المعرفية كمدخل لمعالجة ظاهرة الإقصاء أو التكفير، أي الظاهرة المتشدّدة للعلاقة مع «الآخر».

كانت كتابات بعض الأئمة الذين عاشوا عصر حملات الفرنج على بلاد العرب والمسلمين وحملات المغول كرتّ فعل على انهيار الدولة وفقدان هويتها. من هذه الزاوية نفهم كتابات ابن تيمية التي أسّست لفكر إنقلافي يكرّس الجهل الخوف من الآخر فالتعصّب للثوخش. لكنها خدمت عندما تمّت إعادة تشكيل السلطة المركزية عبر السلطنة العثمانية.

إلا أنّ النزاعات الاستقصائية تمّ استبدالها بالاستيراد. فهي ثقافة مستوردة شجّعها المستعمر القديم والجديد في احتلاله للعراق والتحريض المذهبي بعد نزح العروبة من الدستور العراقي الجديد وعبر غضة النظر عن سلوك بعض الدول العربية النشطة في لفتح إنقلافي يكرّس الجهل الخوف من الآخر فالتعصّب للثوخش. لكنها خدمت عندما تمّت إعادة تشكيل السلطة المركزية عبر السلطنة العثمانية.

إلا أنّ النزاعات الاستقصائية تمّ استبدالها بالاستيراد. فهي ثقافة مستوردة شجّعها المستعمر القديم والجديد في احتلاله للعراق والتحريض المذهبي بعد نزح العروبة من الدستور العراقي الجديد وعبر غضة النظر عن سلوك بعض الدول العربية النشطة في لفتح إنقلافي يكرّس الجهل الخوف من الآخر فالتعصّب للثوخش. لكنها خدمت عندما تمّت إعادة تشكيل السلطة المركزية عبر السلطنة العثمانية.

إلا أنّ النزاعات الاستقصائية تمّ استبدالها بالاستيراد. فهي ثقافة مستوردة شجّعها المستعمر القديم والجديد وديمومة الكيان الصهيوني.

هذه بعض الأمثلة وليست جردة كاملة للواقع العربي. وتكرّر في الخطاب الغربي عن المشرق العربي هو خطاب فئوي ويعني أيّ صفة وطنية لمكوّنات المجتمعات العربية ويحصرها في الطائفة أو في المذهب أو في العرق. ونشدد هنا أنّ الغرب أيّ استعداد للاعتراف بمختلف القوميات القائمة في المشرق العربي وفي سائر الأقطار العربية والأبالقوة العربية. فالعرب هم سنة وشيعة ودروز وعلويون ومسيحيون<sup>(7)</sup> فقط لا غير!

لكن لابد من الإشارة هنا إلى أنّ ثقافة الإقصاء ليست حرّاً على بعض المجموعات المتشدّدة الإسلامية أو بعض الدول التي تحلّ راية الإسلام. ثقافة التعصّب والغلوّ التوحّش موجودة عند بعض القوميين العرب من السلالات التقليدية أيضا سواء كانت ناصرية أو بعثية أو من حركة القوميين العرب. فبدأل من الإقصاء على قاعدة دينية تمّ وتغيّرت على قاعدة «الخطابتي»، فهـ «الخطأ» هو من يخالف رأي «القائد» أو «الحزب القائد»، فثقافة «لم ليس معي فهو ضدي» موجودة منذ زمن بعيد وينتج عن العصبيات القديمة سواء كانت قبلية أو حزبية. وعتلية الفرز معادية لعقلية الوحدة لأنّ رفع الجميع شعار الوحدة؛ فالسلوك المبني على قاعدة التمييز الفئوي لن يؤدي إلى ترسيخ ثقافة التكامل والوحدة. فالحدّ الأدنى المطلوب هو التكامل وهو مستبعد من الخطاب السياسي على قاعدة «قيادة الطليعة» أو قيادة الحزب أو قيادة «الأكثورية». ففي عصر التواصل الشبكي العالمي الفرز و«الخصومية» للهويات الفرعية تؤدي إلى تشرّد الجهود وتحقيق الأهداف التي يطالب بها الجميع. فثقافة التمييز يمكن أن تسأل مع من نتكامل ومع من نتوخّد؟ فهل الطموح إلى نصيب وحدات مستنسخة بعضها عن بعض؟ فهذه مخالفة أسنة الطبيعية لسنّة الفطرة وحتى لسنة الأديان. فلهذا ماذا يستند يدعو «الأصالة» المزعومة والتي يجب أن ينطوي تحتها الجميع؟

هذه النزعة الإقصائية لم تشكّل سمة المجتمعات العربية الإسلامية عبر أكثر من أربع عشر قرن. فالوطن العربي في العديد من أقطارها ستمتة المتنوع وإن اختلف بمضمون أو مكونات التنوّع. فالمشرق العربي كالمغرب العربي يسوده التنوّع والذي حافظت عليه الحضارة العربية الإسلامية عبر القرون الأربعة عشر الماضية. فحضارتنا لها رؤاقد عديدة داخلية وخارجية، وبالتالي لا تستطيع أن تكون مبنية على الإنغلاق. حضارتها هي للناس جميعاً مهما اختلفت مستلهماتها وأنها تمكّن جاء في القرآن الكريم.

بل بالنسبة إلى الشعوب التي تدعى الحضارات وخاصة في الغرب هي التي مارست أشبع أنواع الإقصاء. ففي القرون الوسطى كانت حملات الفرنج إلى المشرق العربي حملات إبادة كما وثّقها المؤرخون الفرنج. وفي بداية عهد النهضة في أوروبا كانت مؤامرات التفتيش تقضي على الوجود العربي والإسلامي وحتى اليهودي. في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كانت إبادة الشعوب الأصلية في الأميركيكتين على يد المستعمر الأوروبي. في القرن التاسع عشر كانت البوغرومات في أوروبا الشرقية. أما في القرن العشرين استطاعت الدول الغربية ثن الثامن عشر اامتيتين من أقل من خمسة وعشرين سنة ذهب ضحيتها عشرات الملايين من الناس. أما في القارة الأميركية الشمالية فبعد إبادة الشعوب الأصلية كان استبعاد الأقلة، الذي ما زلنا نرى آثاره حتى الآن في الألفية الثالثة. إضافة لقلّ ما فعلوه بتضويهم قاموا باستعمار القارة الأفريقية والآسيوية والأميركية. فبأيّ حق يتكلمون عن ضرورة احترام «الآخر» وأخر من يحترمه «الآخر». ماذا عن الخطاب العنصري السائد في أوروبا وفي الولايات المتحدة؟ هل النموذج الغربي يمكن الاقتداء به؟

### خاتمة

مقاربتنا لموضوع «الآخر» تشير إلى أنّ الموضوع هو في الأساس شأن فرعي. على الصعيد العربي فيالرغم من وجود صراعات مرّمة أخذت الطابع المذهبي لأنها في الأساس سياسية. إما إعادة ترويجها فهي من مخزبات الغرب عامة دما لسياساته الاستعمارية وخاصة مؤخرا عن الاحتلال الأميركي للعراق.

أما الحلّ السياسي لنا لمعضلة «الآخر» فهي العروبة الجامعة في إطار مشروعنا النهضوي العربي لتحقيق مجتمع الكفاية والعدل وتكاتف الفرض. كما أنّ الهويات الفرعية جزء من الهوية العربية والجماهيرية، وبالتالي لا تتناهى في معنا. فكيف نشجّع استمرار المكوّنات المختلفة عن التاريخ لو لم تكن هناك هوية جامعة وإن كانت في بعض الأحيان غير معلّنة وصرحية؟ في المقابل في الغرب، مسألة الهوية مسألة كفت الغربيين الملايين من الضحايا في حروب عبثية ظاهرها صراع الهويات ومضمونها صراع السيطرة.

- \* مداخلة في حلقة نقاشية في جمعية التخصص والتّوجيه العلمي في بيروت في 11 أيار 2016
- \* أمين عام المؤتمر القومي العربي
- جورج قرقم، شرق وغرب: الانشطار الأسطوري، بيروت، دار الفارابي، 2002، المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين، بيروت، دار الفارابي، 2007، تاريخ أوروبا وأسطورة الغرب، بيروت، دار الفارابي، 2009.
- قرقم، المرجع المذكور، الفصل الثاني.
- منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، بيروت، رياض الريس للطباعة والنشر، 19
- قرقم، المرجع السابق.
- راجع في هذا السياق مؤلّفات سيد محمود القمني والشيخ خليل عبد الكريم خاصة «الجزر التاريخية للشريعة الإسلامية»، ط. 2. القاهرة، دار ابن سينا، 1997 وللقمني، «أورييس وعقيدة الخلود»، القاهرة، دار الفكر، 1988.
- لاحظ هنا أنه يتكلمون عن المسيحيين وكأنهم فرقة واحد!

#### هوامش:

1 – Saree Makdissi. Romantic Imperialism: Universal Empire and the Culture of Modernity. Cambridge. Cambridge University Press. 1998.

- جورج قرقم، شرق وغرب: الانشطار الأسطوري، بيروت، دار الفارابي، 2002، المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين، بيروت، دار الفارابي، 2007، تاريخ أوروبا وأسطورة الغرب، بيروت، دار الفارابي، 2009.
- قرقم، المرجع المذكور، الفصل الثاني.
- منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، بيروت، رياض الريس للطباعة والنشر، 19
- قرقم، المرجع السابق.
- راجع في هذا السياق مؤلّفات سيد محمود القمني والشيخ خليل عبد الكريم خاصة «الجزر التاريخية للشريعة الإسلامية»، ط. 2. القاهرة، دار ابن سينا، 1997 وللقمني، «أورييس وعقيدة الخلود»، القاهرة، دار الفكر، 1988.
- لاحظ هنا أنه يتكلمون عن المسيحيين وكأنهم فرقة واحد!